

الباب الثاني

الفَرْق

obeikandi.com

مقدمة:

جاء الإسلام وأخذ بيد الناس إلى العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد لا إله إلا الله. محمد رسول الله.

ودعا الكل إلى هذه العقيدة قال تعالى:

﴿ قُلْ يَتَّهَلَّ أَلِكُتِّبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١)

كما أخذ بيد الناس إلى الأخوة الصادقة التي بينت على توحيد الله، وأنه وحده هو المحاسب وأن الناس جميعاً سواسية لا فضل لأحد منهم على أحد قال تعالى:

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من دعا إلى عصبية، ليس منا من قاتل على عصبية ليس منا من مات على العصبية".

وبذلك وجد المسلمون أنفسهم أخوة بغض النظر عن الجنس واللون وحرس الإسلام هذه الأخوة ببيان الحقوق والواجبات، وضمان الأرزاق ولفت نظر الناس إلى اليوم الآخر، وأن كل إنسان محاسب - لا محالة - على ما عمل، وبيان فضل الإصلاح وستر العيوب.. إلخ.

هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين يرعاهم، والصحابة متأخون يلتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويفدونهم بالنفس والمال والولد.

(١) آل عمران آية ٦٤.

(٢) الحجرات آية ١٣.

ومع ذلك هناك منافقون يحاولون الوقيعة بين الأخوة ويفترصون لذلك الفرص، مستغلين في ذلك ما كان بين العرب قبل الإسلام.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم متبته لما يدبره العدو، يعالج الأمور بتوفيق الله سبحانه حتى تبقى للأمة وحدتها.

وينتقل الأعداء من دور الوقيعة إلى دور إثارة الأسئلة حول العقيدة وما يتصل بها.

وقد تقدم أن الأمة العربية كانت تدين بعقائد متعددة من وثنية ويهودية ونصرانية ومن اليهود والنصارى كانت تثار أكثر الأسئلة.

وكان في اليهود عناد ومكر واستعداد للتحالف مع أى قوة ضد الإسلام حتى ولو كان ذلك على حساب الدين عامة كقولهم لعبدة الأصنام أنتم أهدى من الذين آمنوا سييلا.

والمشركون كانوا يجادلون دفاعاً عن دياناتهم.

وكان جدا لهم إما من عند أنفسهم، وإما باستعانتهم بأهل الكتاب خاصة اليهود الذين كانوا يلغون إليهم الأسئلة التي يوجهونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَنِّدُوا لَكُمْ ﴿١٠٦﴾ ﴾^(١)

وكان القرآن ينزل بالرد على الشبهات التي يثيرونها، ومع رده يأمر المسلمين ألا يستعملوا العنف في جدالهم قال تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾^(٢)

وكانت المجادلة تدور حول أمور كثيرة منها:

(١) الأنعام آية ١٢١.

(٢) العنكبوت آية ٤٦.

الرسالة والرسول: فالمشركون يستبعدون أن يكون هذا الكلام من عند الله سبحانه ويصفونه بأنه "أساطير الأولين" وفي الوقت نفسه يستبعدون أن يكون محمد رسولاً، لماذا لم ينزل القرآن على عظيم، والعظمة يتصورونها بمقاييس الجاهلية يقول سبحانه ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١)

ثم يجادلون في المعجزة، وأنهم لن يؤمنوا إلا إذا تغير وجه الجزيرة العربية، يقول سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن مَّجْنَلٍ وَعَيْنٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٢)

وبما كان يزيد الأمر صعوبة في هذا الموضوع - موضوع الرسالة - أن الخصم فيما بينه وبين نفسه كان يعرف صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا يرضى أن يعترف بذلك كبراً وعناداً وجرياً وراء مصالح دنيوية قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۗ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

ويقول سبحانه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۗ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِيَاثِنَتِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ ﴾ (٤)

وفي غير الرسالة يدور الجدل حول الوحدانية والبعث والمساواة بين الناس وكانت هذه كلها من المسائل التي شغلت معظم القرآن الكريم، والعدو ليس معه من حجة إلا تقليد الآباء والأجداد، أو استبعاد أن يكون الأمر كذلك، ويقف

(١) الزخرف آية ٣١

(٢) الأسراء آيات ٩٠-٩٣.

(٣) البقرة آية ١٤٧.

(٤) الأنعام آية ٣٣.

القرآن الكريم وقفات عند مسألة تقليد الآباء وأن هؤلاء الآباء كثيراً ما يكونون على ضلال فهل يترك العامل عقله ليسير وراء ضلالهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١)

ويستمر الجدل والقرآن ينزل على رسوله الله صلى الله عليه وسلم ليأخذ بيد الناس إلى الهدى.

وإذا بالمعارضين يستسلمون تبعاً ويخضعون عن اقتناع للإسلام الذي كانوا يعارضونه، ويدخلون في دين الله أفواجاً.

وكان كل من يدخل في الإسلام بإخلاص لا يعود إلى الجدل مرة أخرى بل يأخذ ما جاء به الإسلام كما جاء دون اعتراض أو تساؤل عما وراء ذلك.

إنه آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وبالقرآن كتاباً، فلم الجدل بعد ذلك؟

وإذا كانوا يسألون فإنما يسألون عن أحكام لا تسير الحياة إلا بها: حكم الظهار حكم الخمر كيف يعامل اليتيم... إلخ والقرآن الكريم ينزل بالجواب في كل هذا.

بدء الخلاف

كان من الضروري أن يحصل خلاف :

أولاً: هذا شأن الحياة فما من مجتمع فى هذه الحياة إلا ويحصل فيه خلاف.

ثانياً: الحياة لا تقف بل تسير وتتغير، وهناك المشاكل التى تجد ولم تكن موجودة من قبل.

وهذه المشاكل تحتاج إلى حل ومادامت المسألة ليس فيها نص فلا بد من اختلاف وجهات النظر.

ثالثاً: لم يكن الإخلاص يعم كل هذا العدد الذى دخل الإسلام، بل منهم من دخل وكله حقد على الإسلام.

رابعاً: الميراث الثقافى الذى لا ينسى بسهولة.

لقد كان هناك فرق كبير فى هذه الناحية بين السابقين واللاحقين فالوثنى حين يسلم كان ينظر إلى ما كان عليه قديماً كأنه حلم من الأحلام ويعجب كيف جاز منه - وهو العاقل - أن يعبد صنماً ويدعو جماداً لا يسمع ولا يبصر.

ومن هنا كان الإسلام يقضى حقيقة على كل العقائد السابقة عند هذا الوثنى ولكن ربما بقيت عند ضعاف الإيمان بعض عصبية قبيلة^(١).

أما الزردكى أو المانوى أو النصرانى الذى يسلم فإن عقيدته القديمة غالباً ما تبقى محتلة جزءاً أساسياً من فكره، لا يكاد يستطيع أن يتخلص منه إن أراد، فكيف وكثيراً ما كان هو يميل إلى استصحاب عقيدته السابقة معه.

(١) كذلك التى كانت بين القحطانيين والمصريين وسيكون لها أثرها فى الخلافات التى لبست الثوب الدينى بعد ذلك. ولكن الفرق كبير بين القحطانى الذى يحمل نوعاً من العصبية وبين المانوى - مثلاً - الذى يظهر الإسلام؛ لأن المانوى له خطة يريد تنفيذها ليصل إلى هدف معين لإحياء دينه القديم، وهذا ما لم يكن عند القحطانى بكل هذه التفاصيل.

خامساً: وهو مبنى على ما سبق قبل أن نقول هذه المسألة أو تلك كانت سبب الخلاف يجب أن نعطي اهتماماً كبيراً لتغير النفوس، ومن ثم أصبح يؤثر فيها ما لم يكن يؤثر من قبل.

أضرب لذلك مثلاً بأهم مسألة فرقت بين المسلمين وهي الخلافة نجد أن المسلمين اختلفوا في ذلك عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما اختلفوا في ذلك عقب وفاة عثمان رضی الله عنه وهنا نجد الفرق واضحاً بين الحالتين في النتيجة. فعند الاختلاف على أبى بكر رضی الله عنه نجد المعارضين يلتزمون الآداب الإسلامية.

لقد عارض المعارضون فلما وضحت الأمور أمامهم وعرفوا حجة أبى بكر بايع من بايع ومن امتنع عن البيعة وقف عند حدود الشرع، ولم يخطر بباله أن يشق عصاً للطاعة وبقي كذلك حتى تبين له الحق فذهب مبايعاً.

هذا ما كان عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما عقب وفاة عثمان رضی الله عنه فإننا نجد المخالف يبادر إلى سيفه يحمله ليقاتل الحزب المعارض.

وهنا نجد المؤثر واحداً والأثر مختلفاً.

ما السبب إذًا؟

السبب هو حال المسلمين عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم حالهم التي قد تغيرت عقب وفاة عثمان رضی الله عنه.

فقد تولى عثمان الخلافة بعد عمر رضی الله عنهما،

وعثمان من السابقين الأولين وله أيد بيضاء على الدعوة فقد كان سبباً في دخول عدد في الإسلام في أول الدعوة، وكثيراً ما ساعد بما له ولقد كان معظم نفقة جيش العسرة من ماله الخاص وهو من العشرة المبشرين بالجنة، والملقب بذى النورين؛ حيث زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم رقية فلما ماتت زوجة بعدها أم كلثوم ولكن في عهده كان قد كثر الداخلون في الإسلام وليس لهم من الدين إلا الاسم فقط.

ومنهم من دخل وهمه الأول الكيد للإسلام الذى قضى كما يعتقد - على ملكه، فلم يجد أمامه طريقاً لأخذ ثأره إلا الكيد للإسلام، وبدأ هؤلاء الحاقدون يثيرون

الاضطرابات فى وجه عثمان رضى الله عنه ويتهمونه بأمر هو منها براء، فقد كان له من دينه حارس يحرسه من الوقوع فى محرم. ولكن الواقع أن الفتنة قامت ولم تقعد حتى الآن، وقتل عثمان رضى الله عنه. وهنا انفرط عقد الأمة.

فلما تولى على رضى الله عنه الخلافة بعد عثمان لم يكن هناك إجماع على بيعته بل اختلف الناس عليه: البعض معه، والبعض عليه. والبعض اعتزل الفتنة وقامت الحرب وانقسم الناس إلى فريقين: فريق مع على وفريق مع معاوية، وعلى معروف بشجاعته النادرة، وبعد أن اقترب من النصر كانت مهزلة التحكيم حين أشار عمرو بن العاص على معاوية بأن يرفع الناس المصاحف على أسنة الرماح إشارة إلى تحكيم كتاب الله كما قالوا.

كانت مهزلة التحكيم التى خرج منها على بجيشه وقد انشق على نفسه حيث رأى الخوارج أن علياً أخطأ بقبوله التحكيم، وانشقوا على على وخرجوا عليه ولذلك سمو بالخوارج.

وكان من قدر الله تعالى أن قتل على رضى الله عنه، وتنازل الحسن لمعاوية ومن هذا الخلاف نبتت الفرق السياسية التى أصبحت فرقاً دينية فقد ظهرت الشيعة والخوارج.

وبدأ النقاش والجدل حول مسائل جُدت ولم تكن موجودة قبل ذلك. فالجدل حول الخلافة ومرتكب الكبيرة وصله العمل بالإيمان، والقضاء والقدر. وبرغم أن الجدل كان سياسياً إلا أنه لبس ثوب الدين فى كل نقطة فيه. وكانت المغالاة فى الاتجاه إلى أحد الطرفين وعند ذلك يكون التوسط فتكون فرقة جديدة.

وأهم هذه الفرق:

١- الشيعة ٢- الخوارج ٣- الجبرية ٤- المرجئة ٥- المعتزلة ٦- الأشعرية

وإليك بيان هذه الفرق.

obeikandi.com

الفصل الأول

السبعة

obeikandi.com

الشيعة

تطلق كلمة الشيعة^(١) على الذين شايعوا على بن أبي طالب رضى الله عنه، وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنص، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه، وعن أولاده، وإن خرجت فإما بظلم يكون من غيرهم، وإما بتقية منه ومن أولاده^(٢).

وهذه الفرقة - كما ترى نشأت نشأة سياسية، إلا أنها أدخلت الدين فى الحكم على الموافق والمخالف.

ولا يمكن تحديد الوقت الذى نشأت فيه هذه الفرقة بالضبط، فإن علياً كرم الله وجهه كان له محبوبون حتى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عم الرسول الذى تربى فى بيت النبوة. وكان أول من أسلم من الصبيان، وهو الذى بات فى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة. معرضاً بذلك حياته لخطر محقق.

فقد هاجر المسلمون سراً، وهم يتوقعون الخطر، فما بالك بمن جلس فى مكة وحده بعد هجرة الرسول متحدثاً قريشاً ليلة الهجرة؟ ثم ارتضاه الرسول زوجاً لابنته فاطمة ثم شجاعته النادرة فى القتال التى جعلته حديث الناس، ثم تنويه الرسول صلى الله عليه وسلم بذكره فى كثير من المواقف مثل ما كان فى فتح خيبر. جاء فى سيرة ابن هشام:

"بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، برأيته، وكانت بيضاء، فيما قال ابن هشام. إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك

(١) شيعة الرجل أتباعه وانصاره إلا أنها عند الإطلاق تنصرف إلى شيعة على رضى الله عنه.

(٢) المواقف ج ٨ ص ٣٨٤.

فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب. فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح علي يديه، ليس بفرار.

قال: يقول سلمة فدعا رسول الله علياً رضوان الله عليه، وهو أرمد، فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك.

قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح، يهرول هرولة، وأنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا على بن أبى طالب. قال اليهودى: علوتم، وما أنزل على موسى، أو كما قال. قال: فما رجعت حتى فتح الله على يديه.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن الحسن، عن بعض أهله، عن أبى رافع، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول على عليه السلام بأباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه^(١).

كل هذا وغيره كثير جعل قلوبا تتعلق به.

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان هناك من يرى أن علياً أولى بالخلافة كالعباس والزيير وكل من يعتقد في فضل على.

ولكن البيعة تمت لأبى بكر وتأخر على مدة ثم بايع هو أيضاً ثم كان عمر وعثمان رضى الله عنهم جميعاً.

(١) سرّة ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٤ ويأنح أى به نفس شديد من الأعياء في العدو . قال السهيلي: هو من الأنح وهو علو النفس. والرضم الحجارة المجتمعة (هامش ابن هشام)

وفى عهد عثمان رأينا أتباع على يظهرن بشكل أكثر وضوحاً فقيل شيعى لمن شايح عليا وعثمانى لمن قدم عثمان رضى الله عنهما.

وبعد مقتل عثمان ونشوب الحرب الأهلية، قاتل شيعة على معه حتى استشهد كرم الله وجهه على يد عبد الرحمن بن ملجم، ولكن الشيعة لم تمت بل بقيت، وكل الانقسامات التى حصلت فى صفوف الأمة كثيراً ما تزول بمرور الأيام فلم نعد نسمع كثيراً بالمعتزلة والأشعرية إلا فى فصول الدراسة.

والخوارج أنفسهم لم يعد لهم إلا وجود ضعيف فى بعض البلاد الإسلامية كالأباضية وهو وجود ليس له أثر كبير.

أما بالنسبة للشيعة فإن الأمر يختلف تماماً إذ تكاد الأمة حتى الآن تنقسم إلى قسمين رئيسيين: سنة وشيعة.

ولا ينتظر لهذا الوضع أن يزول قريباً، ولكن الأمل أن تعم فكرة التسامح بين الفريقين، فلا تكون قطيعة، بل حب وأخاء برغم احتفاظ كل منهم بوجهة نظره.

وهذا أمل نرجو أن يتحقق وإن كان يقف فى طريق هذا الأمل المتعصبون الذين يعتقدون أن تعصبهم إنما هو من أجل الدين. ويوم أن يهئ الله للأمة المخلصين تضيق هوة الخلاف.

ولكل فرقة نقطة ينطلقون منها والشيعة ينطلقون من نقطة الإمامة.

إنهم يعتقدون أن حق على وذريته فى الخلافة يجب ألا ينازع فيه، إنه حق شرعى، وليس لأحد أن ينازل عنه.

فإذا اختارت مجموعة من المسلمين واحداً غير على أو واحداً من ذريته من بعده فإن الاختيار يكون باطلاً لأن هذا حق شرعى لعلى وذريته ومن تولى الحكم من غيرهم فهو مغتصب له.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد نص على على بالوصف - كما تقول الزيدية أو بالشخص - كما تقول الإمامية.

فرق الشيعة

عند بيان عدد الفرق قلنا الشيعة كواحدة من الفرق الإسلامية كالخوارج والمعتزلة. ولكن الحقيقة أن الشيعة تنقسم في داخلها إلى عدة فرق فهم^(١) اثنتان وعشرون فرقة يكفر بعضهم بعضاً أصولهم ثلاث فرق.

١ - غلاة

٢ - وزيدية

٣ - وإمامية

أما الغلاة فثمانية عشرة

ونحن هنا لا نريد تعداد الفرق واحدة واحدة، ولكن محاولة إظهار الآراء والعقائد التي تقول بها الفرق الغالية فنجد السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي كان يقول لعلي أنت الإله حقاً فنفاه على المدائن.

وسنجد فكرة تأليه علي والأئمة، سنجد هذه الفكرة يكون لها أثرها بعد ذلك حيث سنجد كثيراً من أصحاب الفرق الشيعية يقولون بتأليه الأئمة بل وتأليه أنفسهم كما سيأتي في هذا البحث قريباً.

وقال ابن سبأ لم يمت علي ولم يقتل، وإنما قتل ابن ملجم شيطاناً تصور بصورة علي^(٢).

ويزعم الشيعة أن علياً يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً^(٣).

(١) كما يقول صاحب المواقف وهو ليس اجماعاً من مؤرخي الفرق فعند مراجعة كتب الفرق نجد خلافاً كبيراً في عدد الفرق وآرائهم.

(٢) المواقف بشرح السيد ص ٣٨٥ ج٨.

(٣) مقالات الاسلاميين ص ٨٦ ج١.

وابن سبأ حين يقول بأن علياً لم يقتل، لا يتنازل عن رأيه، بل يصمم عليه، ويقول لمن قال له إن علياً قد قتل:

"إن جثمتونا بدماعه فى صرة، لم نصدق بموته، ولا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها.

وهذه الطائفة تزعم أن المهدي المنتظر إنما هو على دون غيره^(١).

ويرى ابن سبأ أن علياً فى السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه....

وهؤلاء يقولون عند سماع الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين^(٢).

هذه بعض الآراء التى دخلت البيئة الإسلامية على يد عبد الله بن سبأ وسيكون لها تأثير فيما بعد فيمن سيأتى من الفرق الغالية.

ولكن الذى نحب أن نقوله - كما قلنا مراراً - إن هناك أمرين:

الأول - وهو الأهم - أن هذه الآراء كانت موجودة فى البيئة الإسلامية.

الثانى: أن هذه الآراء قال بها فلان.

والأمر الثانى كثيراً ما يكون موضع شك، فقد تنسب آراء لإنسان لم يقلها، أو لم تخطر على باله.

وقد تدس كتب على إنسان، وتنسب إليه، وهو منها بريء كل البراءة بل وربما تنسب آراء إلى شخص ما، وهذا الشخص لا وجود له، بل هو شخصية وهمية اخترعها الخيال اختراعاً.

ومن هذه الشخصيات التى قيل فيها هذا عبد الله بن سبأ فالسبئية وجدت فى

البيئة الإسلامية بلا شك ولكن الشك إنما هو فى شخصية عبد الله بن سبأ.

وفى السبئية بدأت العقائد القديمة تظهر فى شخصية على بن سبأ الله عنه.

فكما أن عيسى لم يصلب بل رفع إلى السماء كذلك على لم يقتل - كما يقولون -

بل رفع إلى السماء.

وعلى ليس إنساناً فقط بل هو إله أو روح الإله حلت فيه.

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٤٣.

(٢) المواقف ص ٣٨٥ ج ١.

وهذه الآراء نجدها حلقة بين الماضى والمستقبل. فهى مأخوذة عن الديانات السابقة وسيكون لها أثرها فى المذاهب التى ستأتى بعد ذلك.

وإذا كان التناسخ عقيدة هندية - كما سبق - فإننا نجده يظهر فى البيئة الإسلامية على يد فرق شيعية مثل "الكاملية" حيث ذهب "أبو كامل" إلى القول بالتناسخ فى الأرواح عند الموت، وأن الإمامة روح يتناسخ أى ينتقل من شخص إلى آخر، وقد تصير فى شخص نبوة بعد ما كانت فى شخص آخر إمامة^(١) ويذهب إلى كفر على الصحابة رضى الله عنهم أما الصحابة فيكفرون بترك بيعة على، وأما على فيكفر بترك طلب الحق.

وأما التجسيم والحلول والنبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم فإننا نجدها فى البيانية^(٢).

فقد ادعى "بيان" أن الله على صورة إنسان ويهلك كله إلا وجهه، وروح الله حلت فى على، ثم فى ابنه محمد بن الحنفية ثم فى ابنه هاشم ثم فى بيان^(٣). وينسب "بيان" لنفسه قوة فوق قوة البشر فهو - كما يدعى - يدعو "الزهرة" فتجيبه، وأنه يفعل ذلك بالاسم الأعظم^(٤) ثم ادعى النبوة، وأنه نسخ جزءاً من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

وهنا نجد فكرة حلول روح الله فى إنسان تظهر على يد أمثال "بيان" وهذه فكرة يقول بها المسيحيون^(٥).

ويستشهد "بيان" على رأيه - فى حلول قوة إلهية فى على - بأنه "كان يعلم الغيب، ويخبر عن الملاحم، وصح خبر ما أخبر به وأنه كان يحارب الكفار بعلمه الغيبى، وله النصر، والظفر.

(١) نفسه ص ٣٨٥

(٢) نسبة إلى بيان بن سمعان التميمي النهدي اليمنى (المواقف)

(٣) المواقف ص ٣٨٥.

(٤) مقالات الاسلاميين ص ٦٧ ج١

(٥) كان اتباع الكنيسة اليعقوبية يرون أن اللاهوتية والناسوتية تؤلفان فى المسيح طبيعة واحدة، على حين كان الملكانيون يميزون بين طبيعتين: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية (تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٠) ومن هنا نجد أن وجود الإلهية فى إنسان فكرة مسيحية.

ويذكر قصة خلع على لباب حصن خيبر، ويورد حديثاً لعلى يقول فيه: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية، ولا بحركة غذائية، ولكن بقوة ملكوتية، بنور ربها مضيئة^(١).

ويفسر بيان بن سمعان القوة الملكوتية فى نفس على كالمصباح فى المشكاة والنور الإلهى كالنور فى المصباح، وبهذا يفسر تفسيراً غنوصياً فكرة نور المشكاة القرآنية المشهورة.

ويمضى فى التفسير مؤيداً للتجسيد.

فعلى الذى حل فيه جزء إلهى، يظهر فى بعض الأزمان، وهو الذى يأتى فى ظلل الغمام، والرعد صوته، والبرق تبسمه. ويؤيد قوله بالآية القرآنية:

"هل ينظرون إلا أن يأتهم الله فى ظل من الغمام".

ثم ادعى "بيان" الحلول، أو بمعنى أدق ادعى هذا اتباعه من بعده فالبيانية زعمت أن روح الله دارت فى الأنبياء والأئمة حتى انتهت إلى على ثم دارت إلى محمد بن الحنفية ثم صارت إلى ابنه هاشم، ثم حلت بعده فى بيان ابن سمعان^(٢).

ونجد عند المغيرة^(٣) التجسيم والتشبيه، واتجاه إلى إحياء القول بالنور والظلمة.

هذه الفكرة نجد أصولها عند المغيرة الذى يرى أن الله جسم على صورة إنسان، بل رجل من نور، على رأسه تاج، من نور، وقلبه منبع الحكمة. ولما أراد أن يخلق

(١) من كتاب نشأة الفكر الفلسفى د. النشار ص ٨٨ ج ٢

(٢) يرجع إلى الفرق بين الفرق ص ٢٥٥، ومقالات الإسلاميين ونشأة الفكر الفلسفى للنشار ص ٨٨، ٨٩.

(٣) أصحاب المغيرة بن سعيد يقول عنه صاحب النجوم الزاهرة فى أحداث سنة ١١٩ هـ: وفيها خرج المغيرة بن سعيد بالكوفة وكان ساحراً متشعباً، فحكى عنه الأعمش أنه كان يقول: لو أراد على بن أبى طالب أن يحيى عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً لفعّل. وبلغ خالد بن عبد الله القسرى خبره فأرسل إليه فجئ به وأمر خالد بالنار والنفط، وأحرقه ومن كان معه.

وفى هامش النجوم الزاهرة عن ابن الأثير والطبرى فى حوادث سنة ١١٩ بدل لو أراد على لو أردت أن أحيى.. إلخ أى أنه كان ينسب إلى نفسه القدرة على إحياء الميت وهناك اختلاف فى الاسم فالنجوم الزاهرة تقول المغيرة بن سعيد فقط وكذا الأشعرى فى المقالات وكتب الفرق تختلف فهو العجلي أو البجلي أو البجلي.

الخالق تكلم بالاسم الأعظم، فطار فوق رأسه التاج^(١) وذلك قوله تعالى "سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى"

ثم إنه كتب على كفه أعمال العباد، فغضب من المعاصى.

فغرق فحصل من عرقه بحران أحدهما ملح مظلم، والآخر حلو نير، ثم إطلع فى البحر النير، فأبصر فيه ظلمة، فانتزع بعضاً من ظله، فخلق منه الشمس والقمر وأبقى الباقي من الظل نفيًا للشريك، وقال لا ينبغي أن يكون معى إله آخر ثم خلق الخلق من البحرين، فالكفار من المظلم، والمؤمنون من النير^(٢) وخلق ظلال الناس فكان أول من خلق محمدًا.

قال وذلك قوله قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين^(٣). سورة الزخرف آية

٨١.

ثم أرسل محمدًا والناس فى ضلالة، وعرض الأمانة وهى منع على عن الإمامة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان وهو أبو بكر حملها بأمر عمر، حين ضمن أن يعينه على ذلك بشرط أن يجعل أبو بكر الخلافة بعده له وقوله تعالى: كمثل الشيطان^(٤) الآية نزلت فى حق أبى بكر وعمر. فبالنسبة للخلافة نجد عندهم الطعن علنا فى خلافة أبى بكر وعمر.

وقولهم فى خلافة أبى بكر وعمر رده بعض المستشرقين بعد ذلك.

حيث يرى لامنس ومن بعده فيليب حتى: أن خلافة أبى بكر كانت نتيجة لحظة سابقة دبر أمرها بينه وبين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح.

تلك الحكومة الثلاثية التى هيمنت على مصائر الإسلام - كما يقول حتى - وهو لما يزال بعد فى مهده.

وهؤلاء يقولون: الإمام المنتظر هو زكريا بن محمد بن على بن الحسين بن على. وهو حى مقيم فى جبل حاجر إلى أن يؤمر بالخروج. وقيل المغيرة فإنه لما قتل

(١) هذه عبارة الأشعرى وفى المواقف فوقع تاجاً على رأسه.

(٢) المواقف ص ٣٨٥ وتبعاً لمذهبه المؤمنون الشيعة حسب رأيه والكفار هم أعداء الشيعة يراجع ص ٩٥ نشأة

الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار.

(٣) مقالات الإسلاميين ص ٧٣ ج١.

(٤) فى مقالات الإسلاميين والشيطان عنده عمر.

اختلف أصحابه به فقال بعضهم بانتظاره، وقال آخرون بانتظار زكريا كما كان هو قائلاً به^(١).

ونجد التناسخ عند الجناحية فالأرواح تتناسخ وكان روح الله في آدم ثم في شيث، ثم الأنبياء، والأئمة، حتى انتهت إلى على وأولاده الثلاثة، ثم إلى عبد الله هذا^(٢).

هنا نجد فكرة خطيرة سيكون لها أثرها فيما بعد.

وسراها عند الباطنية كما سراها منسوبة إلى ابن عربي حين ذهب إلى أن آدم ونوحاً وجميع الأنبياء إنما هم روح واحدة وإن كانت تظهر في مظاهر مختلفة ثم ستكون فكرة الإنسان الكامل عند ابن عربي كامتداد لهذه الآراء.

وبالتبع لمذاهب الشيعة نجد عندهم كل المذاهب والأديان التي جاء الإسلام لمحاربتها، ولو أنهم اعتنقوا هذه الأديان بدون انتساب للإسلام لكان الأمر. فهم أعداء، والمعاملة مع الأعداء لها طرقها التي بينها الإسلام. ولكن هؤلاء أرادوا أن يبينوا أن عملهم هو الشرع والتمسوا له الأدلة - وقد تقدم بعض هذا - من الشرع فنجد عندهم التأويل.

والتأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً بالكتاب والسنة.

مثل قوله تعالى:

"يخرج الحي من الميت"^(٣).

(١) المواقف ص ٣٨٦.

(٢) نفس المصدر وعبد الله هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذى الجناحين وذو الجناحين يطلق على جعفر بن أبي طالب جد عبد الله بن معاوية المذكور.

قال ابن هشام وحدثني من أتق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء يمينه (أى فى غزوة مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة) فقطعت، فأخذه بشماله، فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء، ومن هنا لقب جعفر بن أبي طالب بذي الجناحين.

(٣) الأنعام الآية ٩٥.

إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً.

وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً^(١).

وهذا التأويل ليس بعيداً عن الدين بل هو نص القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

فقد بين الله سبحانه أن المؤمن المهتدى بمنزلة من كان ميتاً فأحياه وأعطاه نوراً يهتدى به في مصالحة^(٣).

هذا هو التأويل الذي يتفق مع الشرع.

أما في المذاهب الشيعية الغالية فإننا نجد تأويلاً ليس بينه وبين الشرع صلة.

وقد تقدم بعض تأويلاتهم والآن إلى بعض آخر منها: فالمنصورية^(٤) يزعمون أن أبا منصور عرج إلى السماء، ومسح الله رأسه بيده وقال يانبي اذهب فبلغ عنى ثم أنزله إلى الأرض، وهو الكسف المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾^(٥)

وكان قبل ادعائه الإمامة لنفسه يقول الكسف على بن أبي طالب . .

وقالوا الرسل لا تنقطع أبداً، والجنة رجل أمرنا بمولاته وهو الإمام. والنار بالضد أى رجل أمرنا ببغضه، وهو ضده أى ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر.

وكذا الفرائض والمحرمات.

(١) التعريفات للسيد الشريف.

(٢) الأنعام آية ١٢٢.

(٣) تفسير الجمل.

(٤) نسبة إلى أبى منصور العجلي رجل من عبد القيس، كان يسكن الكوفة، وله فيها دار. وكان أمياً، لا يقرأ نشأ بالبادية، فلما مات أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ادعى أبو منصور أن أبا جعفر فوض إليه أمره، وجعله وصيه من بعده، ثم تجاوز ذلك فادعى أنه نبي ورسول وأن جبريل يأتيه بالوحي من عند الله" هامش مقالات الإسلاميين.

(٥) الطور آية ٤٤ أى "وإن يروا قطعة من السماء ساقطاً يقولوا من فرط عنادهم وطغيانهم هذا سحاب تراكم بعضه على بعض" تفسير البيضاوى.

فإن الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم.
والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم.

ومقصودهم أن من ظفر برجل منهم فقد ارتفع عنه التكليف لوصوله إلى الجنة^(١).
هذا لون من التأويل نجده لم يبق للغة دلالة على مقصود.
فلو اتبعنا مذهبهم لكان لكل إنسان أن يحمل أى لفظ على أى معنى دون ضابط.
وبعد ذلك نجد استباحة المحرمات وعدم الوقوف عند حدود المشرع.
فنجد الخطابية^(٢) "يستحلون شهادة الزور، لموافقهم على مخالفتهم...
واستباحوا المحرمات، وترك الفرائض^(٣) فاستحلوا الخمر والزنا...
ودانوا بترك الصلاة^(٤)."

وإذا كانت استباحة المحرمات شائعة في الفرق الشيعية الغالية فإننا نجد عقيدة
أخرى تكاد تجمعهم وهي حلول اللاهوت في الناسوت أو إظهار الأئمة على أنهم
آلهة يعبدون.

فنجد الخطابية يعبدون أبا الخطاب ويزعمون أنه إله ويزعمون أن جعفر بن محمد
إلهم أيضاً^(٥).

يقول أبو الحسن الأشعري "وقد قال في عصرنا هذا قائلون بالهية سلمان
الفارسي^(٦)."

(١) المواقف ص ٣٨٦ ج ٨.

(٢) نسبة إلى أبي الخطاب الأسدي.

وأبو الحسن الأشعري يبين أن الخطابية خمس فرق كلهم يزعمون أن الأئمة كلهم أنبياء محدثون، ورسل الله
وحججه على خلقه، لا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت. فالناطق محمد، والصامت على
ابن أبي طالب. فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما هو كائن.
وزعموا أن أبا الخطاب نبي وأن أولئك الرسل فرضوا عليهم طاعة أبي الخطاب.

والفرقة الثانية من الخطابية يزعمون أن الإمام بعد أبي الخطاب رجل يقال له معمر. وعبدوه والفرقة الثالثة
من الخطابية "البيزغية" أصحاب بزيغ بن موسى. والفرقة الرابعة من الخطابية يقال لهم العميرية أصحاب
عمير بن بيان العجلي. والفرقة الخامسة من الخطابية - المفضلية لأن رئيسهم كان صديقاً يقال له المفضل:

(٣) المواقف ص ٣٨٦ ج ٨.

(٤) مقالات الإسلاميين ص ٧٨ ج ١.

(٥) مقالات الإسلاميين ص ٧٧ ج ١.

(٦) نفسه ص ٨٠ ج ١.

وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى: "فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب"^(١).

وهذا القول أخذوه من المنصوريه والجناحيه.

ولقبوا "بالقرامطة" لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له "حمدان قرمط" وهى إحدى قرى واسط.

و"بالخرمية" لإباحتهم المحرمات والمحارم.

وبالسبعية، لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع أى الرسل سبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ومحمد المهدي سابع النطقاء.

وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته. ولا بد فى كل عصر من سبعة بهم يقتدى، وبهم يهتدى فى الدين وهم متفاوتون فى الرتب: إمام يؤدى عن الله، وهو غاية الأدلة إلى دين الله، وحجة يؤدى عن الإمام ويحمل علمه ويحتج به له، وذو مصة يمص العلم من الحجة أى يأخذه منه. فهذه ثلاثة.

وأبواب وهم الدعاة فأكبر، أى داع أكبر هو رابعهم، (يرفع درجات المؤمنين، وداع مأذون، يأخذ العهود على الطالبين من أهل الظاهر فيدخلهم فى ذمة الإمام ويفتح لهم باب العلم والمعرفة، وهو خامسهم.

ومكلب قد ارتفعت درجته فى الدين ولكن لم يؤذن له فى الدعوة بل فى الاحتجاج على الناس فهو يحتج ويرغب إلى الداعى ككلب الصائد، حتى إذا احتج على أحد من أهل الظاهر، وكسر عليه مذهبه، بحيث رغب عنه، وطلب الحق، أداة المكلب إلى الداعى المأذون، ليأخذ عليه العهود.

قال الآمدى: وإنما سموا مثل هذا مكلباً. لأن مثله مثل الجارح، يجبس الصيد على كلب الصائد، على ما قال تعالى "وما علمتم من الجوارح مكليين"^(٢) وهو سادسهم.

ومؤمن يتبع الداعى، وهو الذى أخذ عليه العهد، وآمن، وأيقن بالعهد ودخل فى ذمة الإمام وحزبه وهو سابعهم.

(١) سورة الحديد الآية ١٣.

(٢) المائدة الآية (٤).

قالوا ذلك الذى ذكرناه كالسموات والأرض والبحار وأيام الأسبوع والكواكب السيارة، وهى المدبرات أمراً، كل منهما سبعة، كما هو المشهور.

ولقبوا بالبابية إذ اتبع طائفة منهم بابك الخرمى فى الخروج بأذربيجان.

وبالمحمة للبسهم الحمرة فى أيام بابك أو تسميتهم المخالفين لهم من المسلمين حميراً. وبالإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أبنائه. وقيل لا تنساب زعيمهم إلى محمد بن إسماعيل.

وأصل دعوتهم على إبطال الشرائع، لأن الغيارية وهم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم.

وذلك أنهم اجتمعوا فتذكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك، وقالوا لا سبيل لنا إلى دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم على الممالك لكننا نحتال بتأويل شرائعهم إلى ما يعود إلى قواعدنا ونستدرج به الضعفاء منهم، فإن ذلك يوجب اختلافهم، واضطراب كلمتهم ورأسهم فى ذلك "حمدان قرمط" وقيل "عبد الله بن ميمون القداح".

ولهم فى الدعوة واستدراج الطغام مراتب:

الذوق، وهو: تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة، أم لا، ولذلك منعوا إلقاء البذر فى السبخة، أى دعوة من ليس قابلاً لها. ومنعوا التكلم فى بيت فيه سراج، أى فى موضع فيه فقيه أو متكلم.

ثم التأنيس، باستمالة كل أحد من المدعويين بما يميل إليه بهواه وطبعه من زهد وخلاعة، فإن كان يميل إلى الزهد زينه فى عينه، وقبح نقيضه وإن كان يميل إلى الخلاعة زينها، وقبح نقيضها حتى يحصل له الأئس به.

ثم التشكيك فى أركان الشريعة بمقطعات السور بأن يقول ما معنى الحروف المقطعة فى أوائل السور وقضاء صوم الحائض دون قضاء صلاتها أى لم يجب أحدهما دون الآخر؟ ووجوب الغسل من المنى دون البول وعدد الركعات، أى لم كان بعضها أربعاً وبعضها ثلاثاً وبعضها اثنتين؟ إلى غير ذلك من الأمور التعبدية.

وإنما يشككون في هذه الأشياء ويطوون الجواب عنها ليتعلق قلبهم بمراجعتهم فيها.

ثم الربط وهو أمران :

الأول: أخذ الميثاق منه بأن يقولوا قد جرت سنة الله بأخذ الموائيق والعهود ويستدلوا على ذلك بقوله تعالى: "وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم"^(١) ثم يأخذوا من كل أحد ميثاقه بحسب اعتقاده ألا يفشى لهم سرًا.

والثاني: حوالة على الإمام في حل ما أشكل عليه من الأمور التي ألقاها إليه فإنه العالم بها ولا يقدر عليها أحد حتى يترقى من درجته وينتهي إلى الإمام.

ثم التدليس، وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا لهم حتى يزداد ميله إلى ما دعاه إليه.

ثم التأسيس، وهو تمهيد مقدمات يقبلها ويسلمها المدعو، وتكون سائقة له إلى ما يدعوه إليه من الباطل.

ثم الخلع وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية:

ثم السلخ عن الاعتقادات الدينية.

فإذا ما آل حال المدعو إلى ذلك يأخذون في الإباحة والحث على استعجال اللذات وتأويل الشرائع كقولهم: الوضوء: عبارة عن موالاة الإمام. والتيمم، هو: الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة والصلاة عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"^(٢) والاحتلام عبارة عن إفشاء سر من أسرارهم إلى من ليس من أهله، بغير قصد منه، والغسل: تجديد العهد. والزكاة: تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين. والكعبة: النبي. والباب على. والصفاء: هو النبي والمروة: على. والميقات: الإيناس. والتلبية: إجابة الدعوة. والطواف بالبيت سبعاً: موالاة الأئمة السبعة. والجنة: راحة الأبدان عن التكاليف. والنار: مشقتها بمزاولة التكاليف. إلى غير ذلك من خرافاتهم.

(١) الأحزاب الآية (٧).

(٢) العنكبوت الآية (٤٥).

ومن مذهبهم أن الله لا موجود ولا معدوم ولا عالم، ولا جاهل، ولا قادر، ولا عاجز، وكذلك فى جميع الصفات، وذلك لأن الإثبات الحقيقى يقتضى المشاركة بينه وبين الموجودات، وهو تشبيهه والنفى المطلق يقتضى مشاركته للمعدومات، وهو تعطيل، بل هو واهب هذه الصفات ورب المتضادات.

وربما خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة فقالوا: أنه تعالى أبدع بالأمر العقل التام، وبتوسطه أبدع النفس التى ليست تامة، فاشتقت النفس إلى العقل التام مستفيضه منه، فاحتاجت إلى الحركة من النقصان إلى الكمال. ولن تتم الحركة إلا بآلتها فحدثت الأجرام الفلكية، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس، فحدثت بتوسطه الطبائع البسيطة العنصرية وبتوسط البسائط حدثت المركبات من المعادن والنباتات وأنواع الحيوانات.

وأفضلها الإنسان، لاستعداده لفيض الأنوار القدسية عليه واتصاله بالعالم العلوى، وحيث كان العالم العلوى مشتملاً على عقل كامل كلى ونفس ناقصة كلية تكون مصدرًا للكائنات وجب أن يكون فى العالم السفلى عقل كامل يكون وسيلة إلى النجاة وهو الرسول الناطق ونفس ناقصة تكون نسبتها إلى الناطق فى تعريف طرق النجاة نسبة النفس الأولى إلى العقل الأول فيما يرجع إلى إيجاد الكائنات وهى الإمام الذى هو وصى الناطق.

وكما أن تحرك الأفلاك بتحريك العقل، والنفس، كذلك تحرك النفس إلى النجاة بتحريك الناطق والوصى، وعلى هذا فى كل عصر وزمان.

قال الأمدى هذا ما كان عليه قدماءهم.

وحين ظهر "الحسن بن محمد الصباح" جدد الدعوة على أنه الحججة الذى يؤدى عن الإمام الذى لا يجوز خلو الزمان عنه.

وحاصل كلامه ما تقدم فى الاحتياج إلى المعلم، ثم إنه منع العوام عن الخوض فى العلوم، والخواص عن النظر فى الكتب المتقدمة، كيلا يطلع على فضائحهم.

ثم إنهم تفلسفوا ولم يزالوا مستهزئين بالنواميس الدينية والأمر الشرعية وتحصنوا بالحصون وكثرت شوكتهم وخافت ملوك السوء منهم، فآظفروا إسقاط

التكاليف وإباحة المحرمات وصاروا كالحیوانات العجاوات بلا ضابط دينی ولا وازع شرعی نعوذ بالله من الشیطان وأتباعه.

هذا هو تصویر صاحب المواقف لمذهبهم^(١).

وهنا نسأل هل وجدنا دینا؟

الواقع أننا وجدنا خليطاً عجيباً من فلسفات وأديان مختلفة.

فلسفة فيها من كل دين إلا دين الإسلام.

(١) المواقف بشرح السيد الشريف ح ٣ ص ٢٨٨ - ٢٩٠ طبعة استانبول.

الزيدية

هم المنسوبون إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب. "وكان زيد بن علي بويح له بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك وكان أمير الكوفة يوسف بن عمر التقفى.

وكان زيد بن علي يفضل علي بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويتولى أبا بكر وعمر، ويرى الخروج على أئمة الجور.

فلما ظهر في الكوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبي بكر وعمر، فأنكر ذلك علي من سمعه منه فتفرق عنه الذين بايعوه فقال لهم رفضتموني، فيقال إنهم سموا الرفضة لقول زيد لهم رفضتموني، وبقي في شرذمة، فقاتل يوسف بن عمر، فقتل ودفن ليلاً، وكان معه نصر بن خزيمة العبسي، ثم إنه ظهر على قبره فنيش وصلب عرياناً^(١).

هذه هي عقيدة زيد.

إنه يفضل علياً، ولكنه مع ذلك يحترم أبا بكر وعمر.

بل ويلتمس العذر لتولي أبي بكر الخلافة دون علي، وذلك لأن "عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً، وسيف أمير المؤمنين علي عليه السلام لم يجف من دماء المشركين، من قريش بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر، كما هي.

فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد. وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد، والتقدم بالسن، والسبق في الإسلام، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٣٦ - ١٣٧ ج١.

وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً، والأفضل فيرجع إليه في الأحكام. ويحكم بحكمه في القضايا^(١).

ولكن هذا الرأي لم يرض أصحابه، وقد يكون هذا من أسباب تركهم له كما تقدم^(٢).

ولكن الأغلب والأقرب إلى الحق أنهم فعلوا معه ما فعلوا مع الحسين من قبل. وتفرقت الزيدية إلى فرق وكان منها المعتدلة مثل السلمانية^(٣) الذين يرون أن الإمامة شورى، وأنها تصلح في المفضول، وإن كان الفاضل أفضل في كل حال، ويثبتون إمامه الشيخين أبي بكر وعمر^(٤).

ونجد البتريه^(٥) يذهبون إلى "أن علياً أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأولاهم بالإمامة، وأن بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ، لأن علياً ترك ذلك لهما، ويقفون في عثمان وفي قتلته، ولا يقدمون عليه بأكفار. وينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا، ولا يرون لعلى كرم الله وجهه إمامة إلا حين بويح"^(٦).

ولكن هناك من ينتسب إلى الزيدية، ولا يتصف بهذا التسامح بل نجد عنده يشبه آراء الغالية.

الجارودية^(٧) من يذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على بن أبي طالب، بالوصف لا بالتسمية، فكان هو الإمام من بعده.

وأن الناس ضلوا وكفروا بتركهم الاقتداء به بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم الحسن من بعد علي هو الإمام.

(١) الملل والنحل للشهرستاني.

(٢) لقد بايعه خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان. ولكن لم يحضر معه المعركة سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً.

(٣) أصحاب سليمان بن جرير الزيدى

(٤) مقالات الإسلاميين ص ١٤٣ ج ١.

(٥) أصحاب الحسن بن صالح بن حى وأصحاب "كثير النواء" وإنما سموا بترية لأن كثيراً كان يلقب بالأبتر.

(٦) مقالات الإسلاميين ص ١٤٤ ج ١.

(٧) الجارودية أصحاب "أبي الجارود" كان أعمى ويوصف بأنه مبتدع ضال وأهل السنة اعتبروه رافضياً يضع الحديث في مثالب الصحابة ويرى في فضائل أهل البيت عنهم أشياء لا أصول لها. بل اعتبروه من أهل

الكوفة الفلاة نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار ص ١٨٨ ج ٢.

ثم الحسين هو الإمام من بعد الحسن".

فوجد هنا تكفير من ترك عليا.

ومن الجارودية من يرى "أن محمد بن عبد الله بن الحسن^(١) لم يميت وأنه يخرج ويغلب^(٢)".

وبذلك نجد أنفسنا أمام عقائد باطنية قالت بها فرقة تنسب إلى الزيدية.

كما نجد عند فرقة أخرى من الجارودية القول بأن "محمد بن القاسم صاحب الطالقان^(٣)" حتى لم يميت وأنه يخرج ويغلب.

وفرقة قالت مثل ذلك في "يحيى بن عمر^(٤)" صاحب الكوفة.

(١) اسمه في النجوم الزاهرة محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن، ويعتبر قتله من المأس التي أصابت آل البيت، قبض المنصور على عبد الله وحسبهم سنة ١٤٤ وهم حسن وإبراهيم ابنا حسن بن الحسن، وحسن بن جعفر بن حسن بن الحسن، وسليمان وعبد الله ابنا داود ابن حسن بن الحسن، وسهيل وإسحاق ابنا إبراهيم المذكور، وعيسى بن حسن بن الحسن وأخوه على القائم. وفي حوادث سنة ١٤٥ يقول: فيها قتل الخليفة أبو جعفر المنصور محمداً وإبراهيم ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واحداً بعد واحد فقتل محمد بالمدينة وبعده بمدة قتل إبراهيم. وكان إبراهيم خرج أيضاً بعد خروج أخيه محمد على المنصور بالبصرة، وانضم عليه خلائق من العلماء والفقهاء وأعيان بني الحسن، فلما ورد عليه الخبر يقتل أخيه محمد عظم شأنه وكاد أمره أن يتم وقوع بينه وبين جيش المنصور أمور ووقائع إلى أن قبض عليه وقتل وفيها أيضاً مات والدهما عبد الله بن الحسن في حبس المنصور. قال البيهيم حبسهم أبو جعفر المنصور في سرداب (يعني عبد الله المذكور وأقاربه من بني الحسن) تحت الأرض لا يعرفون ليلاً ولا نهاراً. والسرداب عند قنطرة الكوفة وهو موضع يزار. ولم يكن عندهم بئر للماء ولا سقاية. فكانوا يبولون ويتغوطون في مواضعهم، وإذا مات منهم ميت لم يدفن بل يبلى وهم ينظرون إليه فاشتد عليهم رائحة البول والغائط. فكان الورم يبدوا في أقدامهم ثم يترقى في قلوبهم فيموتون.

(٢) مقالات الإسلاميين ص ١٤٣.

(٣) محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب خرج في أيام المعتصم بالطالقان فأخذه عبد الله بن طاهر، ووجه به إلى المعتصم بعد وقائع كانت بينه وبينه فحبس - فيما ذكر يسامرا عند مسرور الخادم في محبس ضيق، ثم حول إلى موضع آخر وأجرى عليه طعام، ووكّل به قوم يحفظونه فلما كان ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة (وكان ذلك في سنة ٢١٩) هرب من الحبس ليلاً.. فلما أصبحوا أتوه بالطعام فلم يجدوه ولم يعثر له بعدها على أثر، عن هامش مقالات الإسلاميين ومرجعهم الكامل لابن الأثير ١٢/٦ بولاق.

(٤) هو أبو الحسن يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وأما آراؤهم الكلامية فإننا نجدهم كالمعتزلة يرون "أن أصحاب الكبائر كلهم معذبون في النار خالدون فيها، مخلدون أبداً، لا يخرجون منها، ولا يغيبون عنها"^(١) والزيدية بأجمعها ترى السيف والعرض على أئمة الجور، وإزالة الظلم وإقامة الحق.

وهي بأجمعها لا ترى الصلاة خلف الفاجر، ولا تراها إلا خلف من ليس بفاسق^(٢).

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٤٩ ج١

(٢) نفسه ص ١٥٠ وعندما زرت اليمن وهي تتكون من الشافعية والزيدية - وجدت الشافعية يصلون بإطمئنان وراء الإمام المصرى وأما الزيدية فإنهم يرفضون ذلك وما كان للعالم المصرى - إلا فيما ندر - أن يختب الجمعة او يصلى إماماً بالزيدية وقليلاً ما كنت ترى بعضهم يسمح للعالم المصرى بالخطبة والصلاة وكأنهم فى سماحهم مرغمين نظراً لحالة الحرب والثورة.

الإمامية

الإمامية نسبة إلى مقالتهم باشرط معرفة الإمام وتعيينه فى الإيمان وهى أصل عندهم^(١).

والفرق بين الإمامية والزيدية فى تعيين الإمام أن الإمامية يرون أن النصوص عينت عليا بالشخص. وأما الزيدية فإنهم يرون أن النصوص اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص.

ومن أراء الإمامية التى يجمعون عليها - فوق ما تقدم - أن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء بعلى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف. وأنها قرابة ، وأنه جائز للإمام فى حال التقية أن يقول إنه ليس بإمام ، وأبطلوا جميعاً الاجتهاد فى الأحكام ، وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس ، وزعموا أن عليا - رضوان الله عليه - كان مصيباً فى جميع أحواله ، وأنه لم يخطئ فى شيء من أمور الدين إلا الكاملية (أصحاب أبى كامل) فإنهم أكفروا الناس بترك الاقتداء به. وأكفروا عليا بترك الطلب^(٢).

ومن عقائدهم أن الاثنى عشرية (وهى القطعية^(٣)) يعينون اثنى عشر إماماً وأن الإمام الثانى عشر هو الغائب المنتظر عندهم الذى يدعون أنه سيظهر فيملاً الأرض

(١) فى مقدمة ابن خلدون الباب الثالث الفصل السابع والعشرون ، والشيعه متفقون على "أن الإمامة ليست من المصالح المرسله العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبي إغفاله ، ولا نفويضة إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكيثر والصغائر" نفس المصدر ثم منهم من يرى أن هذه النصوص (أى التى أوردها) تدل على تعيين علي وتشجيعه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية" نفس المصدر.

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٨٩ ج١.

(٣) سموها فطعية لأنهم قطعوا على موت موسى بن جعفر بن محمد بن علي " وهم جمهور الشيعة يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم نص علي إمامة علي بن أبى طالب واستخلفه بعده بعينه ، واسمه ، وأن عليا نص علي إمامة ابنه الحسن بن علي ، وأن الحسن بن علي نص علي إمامة أخيه الحسين بن علي وأن الحسين بن علي نص علي إمامة ابنه علي بن الحسين وأن علي بن الحسين نص علي إمامة ابنه محمد بن علي ، وأن محمد بن علي نص علي إمامة ابنه جعفر بن محمد ، وأن جعفر بن محمد نص علي إمامة ابنه موسى بن جعفر ، وأن موسى بن جعفر نص علي إمامة بانه علي بن موسى ، وأن علي بن موسى نص علي إمامة ابنه محمد بن علي بن موسى ، وأن محمد بن علي بن موسى نص علي إمامة ابنه الحسن بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن موسى نص علي إمامة ابنه الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى ، وهو الذى كان "يسامراً" وأن الحسن بن علي نص علي إمامة ابنه محمد بن الحسن بن علي. وهو الغائب المنتظر عندهم.

عدلاً بعد أن ملكت ظلماً وجوراً ومن المعروف أن الشيعة اختلفت بعد جعفر الصادق فمنهم من نقل الإمامة إلى ابنه موسى وهو الاثنا عشرية^(١) وموسى عندهم هو الإمام السابع وغير الاثنى عشرية يجد من الشيعة من نقل الإمامة إلى اسماعيل بن جعفر وهم المسمون الإسماعيلية^(٢).

ولنأخذ رأى الشيعة فى جعفر الصادق كمثال فهو الإمام السادس عند الاثنى عشرية إليه الوصية، كما انتقل إليه العلم الربانى جميعه وينسب الجفر الأبيض إليه. ويحتوى الجفر الأبيض - فى رأى الشيعة - على زيور دواد وتوراة موسى، وإنجيل عيسى. وصحف إبراهيم، وفيه أيضاً الحلال والحرام أى الفقه، ومصحف فاطمة. فيه كل ما يحتاج إليه الناس. كما يحتوى الجفر أيضاً على اختيار الملوك المتعاقبين، وأسمائهم وأسماء آبائهم، فما من ملك يملك إلا وهو مكتوب فيه اسمه، واسم أبيه.

ونسب إلى جعفر الصادق القول^(٣) "ورب الكعبة لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنى أعلم منهما، ولأنبأتهما بما ليس فى أيديهما، لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من رسول الله وراثته"^(٤).

ووصف جعفر بهذه الأوصاف التى تتصل بالمعرفة أصبح من العقائد الاثنى عشرية والإسماعيلية ولم يكتف الشيعة بهذا بل أضافوا إليه أن عنصر الوجود الأول "هو نور، هو أول ما أبدع الله".

هذا النور هو صورة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم انتقل - بعد أن بعث الله الخلق فى آدم، ثم فى الاصلاب الطاهرة إلى أن ظهر أخيراً فى محمد الرسول ثم فى أعقاب الأئمة^(٥).

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) تقدم أن الاسماعيلية - حسب تقسيم صاحب المواقف - من الفلاة.

(٣) يجب أن ينظر بحدراً إلى نسبة أمور مخالفة للشرع إلى علماء آل البيت فهؤلاء العلماء كانوا يتبرعون من نسبة هذه الأمور إليهم بل ويطردون من حضرتهم من يقول بها.

(٤) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار ص ٢٠٩ ج ٢ ومصدره الكلينى : الكافى ص ١٥٧.

(٥) نفسه ص ٢١٠ ومصدره المسعودى.

وينسبون إلى جعفر أنه قال:

إن الله في القديم خاطب محمداً فقال:

وأُنصب أهل بيتك للهداية وأوتيتهم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دقيق، ولا يعيبهم خفي، وأجعلهم حجتى على بريتى، والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية، والإخلاص بالوحدانية.

أما عقيدتهم فى الله سبحانه فإن صاحب المواقف يأتينا بها مجملة حيث يبين أن الإمامية كانت "أولاً على مذهب أئمتهم، حتى تمادى بهم الزمان، فاختلفوا، وتشعب متأخروهم إلى معتزلة: إما وعيدية أو تفصيلية، وإلى إخبارية، يعتقدون ظاهر ما ورد به الأخبار المتشابهة، وهؤلاء ينقسمون إلى مشبهة^(١) يجرون التشابهات على أن المراد بها ظواهرها، وسلفية يعتقدون أن ما أراد الله بها حق، بلا تشبيه كما عليه السلف، وإلى ملتحقة بالفرق الضالة.

هذا النص يبين لنا أننا سنجد عند الإمامية شبيها لكل عقيدة فى الفرق الكلامية.

ولكن هل الإمامية هى التى أخذت من غيرها أو غيرها أخذت عنها؟

والجواب أن ذلك يختلف باختلاف العقيدة.

فالتجسيم والتشبيه مصدرهما الشيعة ثم انتقل منهم إلى غيرهم وأما الأفكار الاعترافية فليسوا هم مصدرها بل أخذوها عن غيرهم.

فبالنسبة للتجسيم نجد عند الهاشمية^(٢).

وهشام ليس مستقراً فى رأيه؛ فقد "ذكر عن هشام أنه قال فى ربه فى عام واحد خمسة أقاويل: زعم مرة أنه كالبلورة، وزعم مرة أنه كالسيكة، وزعم مرة أنه غير صورة، وزعم مرة أنه - بشبر نفسه - سبعة أشبار ثم رجع عن ذلك، وقال: هو جسم لا كأجسام^(٣).

من هنا نجد اختلاف مؤرخى الفرق فى تصوير رأى هشام.

(١) المشبهة قوم شبهو الله بالخلقوات، ومثلوه بالمحدثات: (التعريفات للسيد) ص ٣٩٢ ج٨.

(٢) أصحاب هشام بن الحكم.

(٣) مقالات الإسلاميين ص ١٠٨ ج١ ومنهم من يذهب إلى أن المراد من أنه جسم أنه موجود.

ولكنهم مجمعون - لا فرق بين الشيعة والسنة والمعتزلة - "على أن هشام بن الحكم هو أول من قال "الله جسم" وأن مقالة التجسيم فى الإسلام تنسب إليه فهو أول من أدخلها أو ابتدعها كما نسب إليه التشبيه أيضاً^(١).

فالتجسيم لم ينقل من المذاهب الأخرى إلى الشيعة، بل بدأ فى الشيعة، ثم بمرور الزمن بدأت فكرة التجسيم تخسر أنصارها لمخالفتها للعقل والشرع، ولذلك وجدنا الشيعة بعد ذلك تأخذ بالمذاهب الأخرى كالمعتزلة.

يقول ابن تيمية: "وكان متكلمو الشيعة كهشام بن الحكم، وهشام ابن سالم الجواليقى، وأمثالهم يزيدون فى إثبات الصفات على مذهب أهل السنة، فلا يقنعون بما يقوله أهل السنة والجماعة من أن القرآن غير مخلوق، وأن الله يرى فى الآخرة، وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث، حتى يتدعوا فى الغلو فى الإثبات والتجسيم، والتبعيض، والتمثيل ما هو معروف من مقالاتهم التى ذكرها الناس.

ولكن فى أواخر المائة الثالثة دخل من دخل من الناس من الشيعة فى أقوال المعتزلة، كابن النوبختى، صاحب كتاب الآراء والديانات، وأمثاله، وجاء بعد هؤلاء المفيد بن النعمان وأتباعه.

ولهذا نجد المصنفين فى المقالات كالأشعري، لا يذكرون عن أحد من الشيعة أنه وافق المعتزلة فى توحيدهم وعدلهم إلا بعض المتأخرين.

وإنما يذكرون عن بعض قدمائهم التجسيم. وإثبات القدر وغيره.

وأول من عرف عنه فى الإسلام أنه قال: إن الله جسم، هو "هشام ابن الحكم" بل إن الجاحظ يذكر فى كتابه حجج النبوة: ليس على ظهرها رافضى، إلا وهو يزعم أن ربه مثله، وأن البداوات تعرض له، وأنه لا يعلم الشيء قبل كونه إلا بعلم يخلقه لنفسه^(٢)!

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار ص ٢٢٤ ج ٢ ..

(٢) منهاج السنة ج ١ ص ٤٥ - ٤٧ عن نشأة الفكر د. النشار ص ٢١٧ - ٢١٨ ج ٢

نجد بعد ذلك منهم من يرى جواز البداء^(١) على الله سبحانه ويقول "إن الله تبدو له البداوات وإنه يريد أن يفعل الشيء فى وقت من الأوقات ثم لا يحدثه ؛ لما يحدث له من البداء.

وإنه إذا أمر بشريعة ، ثم نسخها فإنما ذلك لأنه بدا له فيها ، وإن ما علم أنه يكون ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه فجائز البداء فيه ، وما أطلع عليه عباده فلا يجوز البداء فيه"^(٢).

وبعد ذلك تكون لهم الآراء المتعددة فى القرآن وأعمال العباد ، وإرادة الله.. إلخ. وما من رأى قيل به إلا وتجدده عندهم.

(١) البداء جواز الرأى بعد أن لم يكن (التعريفات للسيد).

(٢) مقالات الإسلاميين ص ١١٣ ج ١.

تعقيب أول

ليس من المبالغة فى شيء القول بأن الشيعة بكل فرقها تحوى كل عقائد ومذاهب العالم تقريباً.

فما من عقيدة أو دين سماوى أو غير سماوى إلا وتجد له أثراً فى فرقة أو أكثر من فرق الشيعة.
وهناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا.

فمن أول الأمر تفرق نظرة السنى إلى أمرائه عن نظرة الشيعى لأئمتة فعند السنى يكون للحاكم مهمة محددة وهى تنفيذ أوامر الله سبحانه، ثم السهر على الرعية. وهذا الحاكم قد يكون من هذه الأسرة أو تلك والأمة هى التى ولته هذا العمل بطريق الانتخاب أو وصية من قبله.

وأما الإمام عند الشيعة فإنه يختلف عن ذلك: إنه معين من قبل الله وعند كثير منهم ما يقوله الإمام هو وحى من الله سبحانه.
وصفات معينة هى التى بسببها كان إماماً.
من أهم هذه الصفات: النسب.

ومن هنا وقفنا على أبواب التمييز بين الأئمة وغيرهم، ومن هذا الباب أضيف للأئمة صفات اقتربت بهم بل وصلت بهم فعلاً لا إلى مقام النبوة بل إلى مرتبة الألوهية.

فهو إما محل روح الألهة أو هو نفسه إله على تأويلات ساقوها، أو يسرى فيه نور معين ينتقل من شخص إلى آخر.

واعتقد أنه كان لابد من هذا أى القول بالتناسخ حتى ينسجم المذهب.

لأنه لا يمكن القول بأن هذا إله أو حلت فيه روح الإله أو نور معين سار فيه. ثم يقال بعد هذا إنه مات، موتاً نهائياً. بل لابد من إعطاء نظرة خاصة لهذا الجزء الإلهى.

ومن هنا كانت فكرة التناسخ تجد لها سنداً عند كثير من فرق الشيعة.
بعد ذلك تأنى نقطة السرية.

إن الأئمة لاشك قد نالهم من البلاء ما لم ينل غيرهم؛ بدأ ذلك - كما يرون -
بحرمان على بن أبي طالب من الخلافة ثم قتله كرم الله وجهه، وبلغت المأساة ذروتها
فى استشهاد الحسين رضى الله تبارك وتعالى عنه.

وتوالى المأسى عليهم بعد ذلك.

كان ذلك فى عهد الأمويين ولما جاء العباسيون كان الأمل أن يكونوا أرحم
بالعلويين من بنى أمية.

ولكن العكس تماماً هو الصحيح فقد نزل بالعلويين على يد العباسيين أنواع البلاء
من القتل والسجن مما يعجز الإنسان عن تصويره؛ فعند تتبع كتب التاريخ لا تكاد تمر
سنة إلا وفيها علوى قتل أو سجن أو مثل به.

وشعر العلويون بهذا وهم يرون أنهم أصحاب حق، ويدهش الإنسان من ذلك
التصميم من جانب العلويين على المطالبة بحقهم برغم أنهم رأوا ما نزل بسلفهم.
وبأنهم كانوا - كما اعتقد - يعلمون مسبقاً أن حركاتهم محكوم عليها بالفشل نظراً
للفرق الكبير بين قوتهم وقوة الدولة التى خرجوا لمحاربتها.

وقد تجمعت عوامل منها تصميمهم على المطالبة بحقهم، ثم خداع الناس لهم
حين يبايعونهم ثم يخذلونهم. ثم شراسة عدوهم حيث كان لا يقف عند حد فى
التنكيل بهم.

هذه العوامل وغيرها تجمعت فجعلتهم يفكرون.

ونتيجة لهذا التفكير اتجهوا إلى السرية فى جميع أمورهم.

فلا يستطيع إنسان ليس منهم أن يعرف شيئاً عن مخططاتهم.

ويؤدى بهم الحذر إلى درجة أنهم يعتقدون أن سرهم لن يصل إلى أحد من
الملائكة الموكلين بهم، إذ يرى أحد أئمة الشيعة أن الملكين اللذين يلازمان كل امرئ
كى يحصيا عليه أقواله وأفعاله، يتركانه عندما يتلاقى شيعيان ويأخذ أحدهما فى
التحدث إلى الآخر.

ولما ينبهوا الإمام جعفر الصادق صاحب هذه الدعوى إلى مناقضتها للآية القرآنية (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)^(١).

إذ أن هذا الرقيب هو الملك الحارس الذى يسمع ما يقوله المرء، زفر الإمام زفرة عميقة، واخضلت لحيته بالدموع، وقال ما معناه: أجل: حقاً إن الله أمر ملائكته بأن يتركوا المؤمنين وحدهم عندما يتناجون، غير أن الملائكة إذا فاتهم هذا فالله يعلم ما كان خافياً^(٢).

وانتقلوا من السرية إلى نقطة أخرى وهى "التقية" حيث يجب على الشيعى أن يخفى مذهبه وإذا كان فى بلد يحكمها خصوم الشيعة عمل معهم كواحد منهم، وبذلك ينجو من الخطر الذى يراد به من أعدائه.

وما دام قوم يتسترون ولا يجهرون بدعوتهم ولا عقيدتهم، فإن هذه العقيدة سيدخلها كثير من الباطل.

وهذا ليس خاصاً بالشيعة بل نجده أوضح ما يكون فى المسيحية.

لقد بدأت حياتها دعوى سرية واستمرت على ذلك حتى سنة ٣١٣ تقريباً وفى كل هذه المدة ينزل بالمسيحين من البلاء ما لا يكاد يصدقه عقل.

ولما رفع عنهم هذا البلاء وجهر كل إنسان بعقيدته وجدوا أن بينهم من الخلاف ما لا يقل عن الخلاف الموجود بين دين ودين.

كل هذا كان نتيجة السرية.

فإذا ما جاءت الشيعة وحاولت استعمال السرية فإنه لابد أن تصبح مأوى لكل عقيدة أراد صاحبها أن يدسها على الإسلام.

وساعد على إدخال كل هذه العقائد فى مذهب الشيعة ما يلى:

١ - كثرة الأديان التى كانت تحويها المنطقة.

(١) سورة ق الآية (١٨).

(٢) العقيدة والشرعة: حوله تهر ص ١٨٠ ومصدره "الكافى: الكليني ٦٦" وقد يكون جعفر قبل هذا الكلام، وقد يكون منسوباً إليه دون أن يقوله، ولكن الذى نريده أنه عقيدة شيعة.

- فهنا بلاد الزرادشتية، والمناوية، والمزدكية؛ وكل هذه ديانات لم تعرف التوحيد^(١).
- ٢ - نشاط الحركة العلمية في هذه المنطقة قبل الإسلام ففي هذه البلاد كانت حروب الإسكندر التي بسببها اختلطت ثقافة فارس بثقافة الروم.
- ثم كانت المسيحية وما صاحبها من وجود مدارس الرها. ونصيبين وغيرهما وكذلك المذاهب المتعددة في المسيحية من يعقوبيه ونسطورية.... إلخ.
- ٣ - كانت في هذه المناطق جاليات يونانية من أيام الإسكندر وهي على صلة بثقافة بلادها.
- ومدرسة الإسكندرية والأفلاطونية الحديثة ليست بعيدة عن التأثير في هذه الأماكن.
- ٤ - بعد ذلك كانت تلك الحركة العلمية التي بلغت أوجها في عهد الدولة العباسية.
- وكانت حركة الترجمة، فترجمت كتب من الفارسية والهندية واليونانية والسريانية إلى العربية وهذه الكتب تحوى عقائد كان يدين بها أقوام في يوم من الأيام.. ثم كان هناك من يعرف اللغة الفارسية والعربية ولا يقوم بترجمة كتب إلا أنه يضيف إلى أفكاره من هنا ومن هناك ثم يظهر ذلك كله في إنتاجه.
- ٦ - قد يكون هنا سؤال: لماذا كانت الشيعة هي المأوى لكل هذه العقائد دون غيرها من الفرق والمذاهب.
- والجواب لأنها أنسب لها من غيرها فتأليه الأشخاص ما كان يجد له أنصاراً لو قلنا إن هؤلاء الأشخاص من بنى أمية مثلاً ثم هذه العقائد ما كان يمكن أن تدخل كتب علم الكلام حيث تناقش كل عقيدة علانية.
- أما عندما تضاف إلى كتب طائفة تدين بالسرية فإن احتمال قبولها يصبح كثيراً مع التأكد من عدم مناقشتها.
- ومع كل هذه العوامل يمكن أن أقول إن من درس مذاهب فرق الشيعة فقد درس كل عقائد - العالم تقريباً - منسوبة إلى الإسلام.

(١) اللهم إلا ما قبل عن الزرادشتية وإن كان لم لهم.

تعقيب ثان

على من يطعن فى خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان رضى الله عنهم من الشيعة. لقد اهتم كثير من المفكرين بالرد على الشيعة فى هذه النقطة. ولقد كان للفقهاء والمتكلمين، قصب السبق هنا، يظهر ذلك واضحاً من وصية الإسماعيلية بمنع الكلام فى بيت فيه سراج أى فى موضع فيه فقيه أو متكلم.

ونحن نأتى هنا من آراء المتكلمين ما نعتقد أنه يمثل الاتجاه الصحيح وهو الرأى الذى نرتضيه،

لقد ناقشهم القاضى عبد الجبار فى دعواهم، مبيناً لهم أن دراسة عصر الصحابة والتابعين تفيد بوضوح أنه لم يكن هناك نص على الإمامة.

لأنه لو كان هناك نص لكان يجب أن يكون معلوماً لجميعهم، فلو كان كذلك لكانت الأمور التى جرت فى الإمامة لا تجرى على الحد الذى جرت عليه. بل يجب أن يكونوا مضطرين إلى معرفة إمامة أمير المؤمنين، كاضطرارهم إلى أن صلاة الظهر واجبه، وصوم رمضان واجب، وحج البيت واجب.

فلو كان كذلك لما صح ما قد ثبت عنهم من مواقف الإمامة والمنازعة إلى غير ذلك^(١).

ثم يذكر عن أبى هاشم قوله: إن من تقدم من الإمامية إنما ادعى النص بالأخبار التى تعلقوا بها، مما طريقه طريق النظر، ويدخل فى مثله الشبهه. وحدث بعدهم قوم لم يلزمهم هذا القول بدين، وإنما كان قصدهم المغالبة، ورأوا أن تعلقهم بهذه الأخبار لا يقنع.

فادعوا أنه عليه السلام أخذ بيد أمير المؤمنين، وقال له: أنت الأمير من بعدى.

(١) المغنى ص ١١٩ ج ٢٠ القسم الأول.

وادعوا أن نقل ذلك عن جمع قد حصل إلى أن يبلغ النبي عليه السلام، حتى ادعوا على مخالفهم أنه يعلم صحة قولهم باضطرار.

فطرقوا بهذا لمخالفهم المعارضة بأمر لا أصل لها مثل أن يدعوا التواتر أنه عليه السلام أخذ بيد أبي بكر فقال لهم: - هذا إمامكم من بعدى وخرج الكلام بينهم وبين مخالفهم عن الموضوعات التي تتكلم على مثلها إلى أن ادعى تكذيب البعض من البعض.

ثم قال: الذى يدل على بطلان هذه الدعوى أن هذا الأمر لو كان صحيحاً لا يخلو القول منه عليه السلام من أين يكون كان بحضرة جمع كثير، فتواطئوا على كتمانهم فسيبيلهم سبيل من وصفنا حاله^(١).

على أن كتمان ذلك على جماعة الأمة لا يجوز، لأنها لا تجمع على كتمان ما يجب أظهاره، كما لا تجمع على خطأ، وعلى الجمع العظيم لا يصح.

فما طريقة الاضطرار من جهة العادة كتمان ما هذه حاله. وإن كانوا لم يكتموا ولم يتواطئوا على ترك اظهاره فكيف يجوز أن يقع الخلاف بعده عليه السلام حتى يقول الأنصار منا أمير ومنكم أمير، مع معرفتهم بهذا النص الظاهر؟^(٢).

ثم يضيف إلى ما تقدم "وكيف جاز أن يقول له^(٣) العباس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليل نسأله عن هذا الأمر، فإن كان لنا بينه، وإن كان لغيرنا أوصى بنا، مع هذا البيان المتقدم؟

وكيف ساع لأبى بكر أن يستخلف عمر؟

(١) هنا يتفق رأى المعتزلة والأشعرية يقول إمام الحرمين، دليلاً صحة إمامة أبى بكر. فبان أباذر، وعمارا، وصهيبا، وغيرهم، من الذين كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم اندرجوا تحت الطاعة على بكره أبيهم وكان على رضى الله عنه مطيعاً له سامعاً لأمره ناهضاً إلى غزوة بنى حنيفة متسرباً بالجارية المغنومة من مغنمهم الإرشاد ص ٤٢٨..

(٢) نفسه ص ١٢٠ - ١٢١.

(٣) أى لعلى كرم الله وجهه.

وكيف جرى الأمر في بيعة أبي بكر على ما جرى عليه؟

وكيف لم يبين أمير المؤمنين أمر نفسه على زعمهم للتقيه مع أن غيره قد أظهر كراهة ما فعله أبو بكر، حتى إن طلحة قال له في عهده إلى عمر:

وليت علينا قظا غليظا؟

وكيف رضى أمير المؤمنين أن يكون في الشورى مع ما ترون فيه من القول حالا بعد حال؟

وكيف جاز ألا ينكر على عمر قوله إن وليت من أمر المسلمين شيئاً فلا تحمل بنى هاشم على رقاب الناس؟

وهلا قال له: أنا إمام المسلمين. وقد عرفت النص على، والإشارة إلى، فليست لى حاجة إلى أن أولى.

فكيف لم يذكر هذا النص الظاهر، فيعده في مناقبه حين صار الأمر إليه، وفي وقت الحاجة، مع أنه كان يعد مناقبه في المحافل والمشاهد في أيام معاوية وقبلة؟

وكيف صح مع ذلك أن يعاقد أبا بكر وعمر وعثمان، وينتهى إلى رأيهم في إقامة الحدود وغيرها على ما نقل.. كل ذلك يدل من حال الصحابة على بطلان هذا القول كما دلت أحوالها وأحوال الأمة على أنه عليه السلام لم يقم العباس إماماً....

فكما أنه لا يجوز أن يكون عليه السلام ينص بالإمامة على رجل معين على رؤوس الأشهاد، ويظهر ذلك عند الجمع العظيم، فلا يدعى ذلك له مدع، ولا يدعيه هو نفسه وتجري أحواله على ما علمنا من حال أمير المؤمنين مع سائر الصحابة، فقد صار كل ذلك دليلاً على أنه عليه السلام لم يقمه إماماً^(١).

وإقامة الإمام ليست من الأمور الثانوية على مذهبهم، (أى الشيعة) بل هى "عندهم من أعظم الشرائع، ومما لا تصح الشريعة إلا معها لأن عندهم أنه بالإمام تصح سائر الشرائع من حج وصلاة، وأنه يقوم بحفظ الدين على ما يقولون، فلو جاز

(١) نفسه ص ١٢٢.

أن يكتموا أمره مع النص الذى وقع، وطريقه الاضطرار جاز أن ينص عليه السلام على صلاة وقبلة وشريعة ولا ينقل وإن كان النص فى الأصل بالاضطرار علم^(١). ولا يجوز لهم أن يدعوا أنه كان هناك نص ولكن من تولى الخلافة وسلب الحق "كان يقصد إلى أنه يعفى على أخبار النص فلذلك ضعفت وقلت.

وذلك لأن الأمر لو كان كما قالوا لكننا نحن وهم شرعاً واحداً، وكان يجب إذا لم يتصل بنا ألا يتصل بهم، فكيف والحال هذه أن يدعوا العلم بهذا النص^(٢) ثم إن الإمام علياً نقلت له فضائل ومواقف محموده فى الحروب وغيرها فلماذا نقلت هذه وكتمت أخبار الإمامة^(٣) وهكذا لا نجد سنداً لمن يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر عن إمامة على كرم الله وجهه بالنص أو بالوصف.

ويبقى بعد ذلك صحة إمامة أبى بكر، ودليلها الإجماع لأن الأمة أجمعت عليه. وكون سعد لم يبايع لا يطعن فى الإجماع، لأننا نفهم أن سعداً وحده لا يكون محقاً. ولا بد أن يكون الحق فى أحد ما قالته الأمة، فيجب أن يكون فيما عليه سائر الصحابة^(٤).

وهنا يأتى اعتراض وهو أنه من الثابت أن بعض الصحابة امتنع عن البيعة أول الأمر.

فكيف ادعيتم الإجماع على بيعة أبى بكر وقد تأخر عن ذلك أمير المؤمنين وخالد بن سعيد، وظهر الخلاف عن سلمان، وعن الزبير، وظهر عن أبى ذر، وحذيفة والمقداد وعمار الانحراف عن ذلك والتحقق بأمر المؤمنين^(٥).

والرد على هذا أنهم فى النهاية بايعوا.

"وسعد كما أنه امتنع عن بيعة أبى بكر لم يبايع غيره".

"هذا إن صح أنه بقى على الخلاف، لأنه لا يمتنع ألا يبايع وهو راض؛ لأنه لا معتبر بالبيعة ولا بالحضور، لأنه قد يجوز أن يكون نافرأ عن الحضور لما جرى من صده عما كان له بسبب من الإمارة.

(١) نفسه ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) نفسه ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) يرجع إلى نفس المصدر ص ١٢٥.

(٤) نفسه ص ٢٨٢.

(٥) نفسه ص ٢٨٢.

وإن صح وتيقن خلافه فالأمر على ما قدمنا من أنه إما ألا يعتد بخلافه، أو يعول على صحة الإجماع بعد موته^(١).

وهناك الأدلة الكثيرة على أن علياً رضى الله عنه، وإن كان قد تأخر في البيعة بعض الوقت فإنه صدر منه ما يدل على رضاه بهذه البيعة وأنه لم يكن مكرهاً على بيعته.

فهو الذى أشار على أبى بكر بحرب الردة ومعلوم أن ذلك كان فى أول خلافة أبى بكر.

ثم هو الذى أنكر على أبى سيفان قوله فى أبى بكر^(٢) "أرضيتم يا بنى عبد مناف ان تلى عليكم تيم"

ثم إنه لا وجه لمن يقول إنه بايع مكرهاً حيث إن جميع أحواله تدل على أنه لم يكن مكرهاً حيث قد عاون وعاضد أباً بكر ومدحه ولو كان مكرهاً لكان "يجب أن يتكرر منه النكير حالاً بعد حال، وألا يقتصر على نكير تقدم، وكان يجب ألا تظهر له معاضدة ولا معاونته لما فيه من إيهام كونه محقاً، وذلك لا محل فى الدين، وحقيقة أنه قد تأخر عن البيعة بعض الوقت^(٣) وكان ذلك منه "أنه كان يعتب على القوم من حيث استبدوا بالرأى دونه مع محله العظيم وأنه استوحش من ذلك فتأخر عن البيعة لذلك ولغيره نحو التشاغل برسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ثم بأمر فاطمة عليها السلام...

ولا يمنع أن يكون بعضهم رأى منه عليه السلام نفوراً واستيحاشاً فظن أنه كاره للبيعة أو مكره عليها.

(١) نفسه ص ٢٨٢.

(٢) بعد بيعة أبى بكر قال أبو سيفان لعلى "أرضيتم يا بنى عبد مناف أن تلى عليكم تيم؟ امدد يدك ابايعك فلأملأنها خيلاً ورجلاً" فقال له على "أمسك عليك فظالما غششت الإسلام" نفسه ص ٢٨٢.

(٣) هذا هو المشهور فى كتب التاريخ ولكن الفاضى الباقلانى لا يرضى بنسبة التأخير إلى على والوزير ويقول: وليس يجوز لمسلم اتقى الله أن يضيف إلى على بن أبى طالب عليه السلام والوزير بن العوام التأخر عن بيعته بأخبار واهيه مجيئها من ناحية متهمه لأن تأخرهم عن البيعة مع ما وصفناه من صحتها وثبوتها ضرب من العصيان وليس يمكن اضافة معصية إلى الصحابة بمثل هذا. لأن من ثبت إيمانه وبره وعدالته لا يفسق باخبار الآحاد (التمهيد ص ١٨٨).

وهذه بمنزلة المرأة التي لها إخوة، وفيهم كبير مقدم فى الرأى فإذا زوجها الصغير لم يمتنع أن يستوحش الكبير، ولا يظن به مع ذلك أن كاره^(١).

والقاضى الباقلانى لا يرضى إضافة التأخير إلى على رضى الله عنه ويقول:

أنا نعلم بواضح النظر كذب من ادعى تأخر على والعباس والزبير لأن مثل هذا الخطب الجسيم فى مثل هذا الأمر العظيم يجب إشهاره، وظهوره، وأن ينقل نقل مثله.

فكيف حفظت الأمة بأسرها وعلمت مخالفة على لأبى بكر وغيره من الصحابة فى حكم أم الولد والتوريث، الذى إنما تعلمه الخاصة، وذهب عنها علم تأخره، وتأخر الزبير عن البيعة، حتى لا يرد إلا وروداً شاذاً ضعيفاً وتكون الأخبار الكثيرة فى معارضته ومناقضته^(٢).

والعادة جارية بلزوم مثل هذا للقلوب، وإطلاق الألسن بذكره واشتهاره وإظهاره دون طيه وكتمانه، والسهو عنه والإغفال له؟

وإن هذا من العجب العجيب الذى لا يذهب فساد على ذى تحصيل. هذا على أن حرصنا إنما هو على نفى الشين والعار وإضافة العصيان عن جلة الصحابة وعليتها، بالتأخر عن بيعة لزمهم الانقياد لها، والخنوع لصاحبها.

فإن أبوا ذلك ولم يقنعوا إلا بتصحيح الخلاف منهم، قلنا لهم:

فهذا إذا من ذنوبهم، وما نرجو أن يغفره الله لهم وحاشاً للصحابة من ذلك.

على أنه لا نعرف أحداً روى تأخر على والزبير عن البيعة أياماً إلا وقد روى عنه فى هذه القصة رجوعهم إلى بيعته، ودخولهما فى صالح ما دخل فيه المسلمون^(٣).

هذا هو رأى القاضى الباقلانى، لا يسلم بتأخر على والزبير عن البيعة.

وعلى فرض أنهما تأخرا فإنما هو ذنب نرجو أن يغفره الله لهما.

(١) المغنى ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨٦.

(٢) أنظر مع هذا البامش السابق.

(٣) التمهيد ص ١٨٨.

ثم يعود لتنزيه الصحابة عن هذا.

والقاعدة عنده أن صلاح الصحابة ثبت بيقين فلا يرفع بشبهة.

ومن قبل القاضى الباقلانى قدمنا رأى القاضى عبد الجبار ورأى من استند إليه كأبى هاشم، فى خلافة أبى بكر.

والقاضى عبد الجبار، وأبو هاشم معتزليان والقاضى الباقلانى أشعري وغير هؤلاء نأتى برأى إمام الحرمين إنه يقول:

قد كثرت المطاعن على أئمة الصحابة وعظم افتراء الرافضة وتخرصهم.

والذى يجب على المعتقد أن يلتزمه أن يعلم أن جلة الصحابة كانوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحل المغبوط. وما منهم إلا وهو منه ملحوظ محظوظ.

وقد شهدت نصوص الكتاب على عدالتهم، والرضا عن جملتهم بالبيعة بيعة الرضوان ونص القرآن على حسن الثناء على المهاجرين، والأنصار.

فحقيق على المتدين أن يستصحب لهم ما كانوا عليه فى دهر الرسول صلى الله عليه وسلم.

فإن نقلت هناة فليتدبر النقل وطريقه، فإن ضعف رده، وإن ظهر وكان أحادا لم يقدح فيما علم تواتراً منه، وشهدت له النصوص.

ثم ينبغى ألا يألوا جهداً فى حمل كل ما ينقل على وجه الخبر، ولا يكاد ذو دين يعدم ذلك.

فهذا هو الأصل المغنى عن التفصيل والتطويل^(١).

وبذلك نجد الأربعة القاضى عبد الجبار وأبا هاشم، والقاضى الباقلانى وإمام الحرمين نجد الأربعة يتفقون على رأى وهو تنزيه أبى بكر عما نسب إليه.

وننتقل إلى خلافة عمر

إن كل ما جاء دليلاً على خلافة أبي بكر وتنزيه الصحابة مما نسب إليهم يؤخذ دليلاً على صحة خلافة عمر .

"لأنه لا خلاف أن أبا بكر إذا صلح للإمامة، وثبتت إمامته أن عمر مثله لأن القائل قائلان.

أحدهما: يقدح في إمامتهما ويسوى. والآخر: يثبت إمامتهما فيسوى بينهما. وذلك يغنى عن كلام مفرد في إمامة عمر^(١).

وقد طعنوا في إمامة عمر بغير ما طعنوا به في إمامة أبي بكر، ولكن هذه الطعون ليست بالقوة إلى الحد الذي يطعن في صحة إمامة عمر لأنها كلها شبه تزول بشيء من الفكر والروية.

فمن الطعون التي وجهوها إليه ما يتصل بناحية العلم إذ أخطأ في أمور ما كان يجوز له أن يخطيء فيها.

فقد بلغ من قلة علمه - كما يزعمون - أن لم يعلم أن الموت يجوز على محمد^(٢) صلى الله عليه وسلم.

وأنه أمر برجم حامل حتى نبهه معاذ بن جبل ورجع عن حكمه وقال لولا معاذ لهلك عمر^(٣) وأمر برجم المجنونة حتى نبهه أمير المؤمنين^(٤) علي، وأن المرأة ردتة عندما نهى عن المغلاة في المهور، "فقال كل الناس أفتقه من عمر^(٥)".

(١) المغنى ص ٣ ج ٢٠ القسم الثاني.

(٢) يشير إلى ما كان من عمر عند وفاة الرسول الله صلى الله عليه وسلم مما يصيب الكثير عند المصيبة فيمن يحبون.

(٣) أنظر ص ١٢ من نفس المصدر.

(٤) نفسه ص ١٣ .

(٥) نفسه ص ١٣ هذا ليس عيباً في عمر ولكنه من مفاخره والقاضى الباقلاني يروي عن عمر قوله: "رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوننا".

ثم يذكر قصة المرأة ثم قول عمر "امرأة أصابت ورجل أخطأ وأمير فاضل فنضل (التمهيد ص ١٩٩) وحقيقة هذا من مفاخر عمر، وليت كل الأمراء اتبعوه ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرجع إلى رأى الصحابة فيما ليس فيه روى.

هذه هي بعض الطعون التي طعنوا بها في خلافة عمر يريدون أنه كان غير مستكمل للشروط.

ولكنها في الحقيقة لا تفيد الطاعنين كثيراً فقد كان الصحابة يبهون بعضهم، وقد تكون المسألة اجتهادية أو أن عمر لم يكن يعرف أن المرأة حامل فنبهه معاذ إلى حملها وهكذا.

ثم هم يطعنون بأنه أحدث أموراً في الإسلام ويضربون لذلك عدة أمثلة منها التراويح.

والرد عليهم:

أن "قيام شهر رمضان قد روى عن الرسول أنه عمله، وتركه، فإذا علم أن ذلك الترك ليس للنسخ صار سنة يجوز أن يعمل بها.

فإذا كان ما لأجله ترك عليه السلام - من التنبه بذلك على أنه ليس بفرض ومن تخفيف التعب - ليس بقائم في فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه، فما الذي يمنع من أن يعمل به على وجه يعلم أنه مسنون^(١).

إذا فعمر يصلح للخلافة.

والقاضي أبو بكر الباقلاني يثير سؤالاً ويحيب عليه هكذا: فإن قال قائل:

قد أوضحت أن عمر بصفة من يصلح لإمامة المسلمين وابتداء العقد له، فما الدليل على صحة عهد أبي بكر إليه وأنه جار مجرى العقد له؟

قيل له:

الدليل على صحة ذلك أن أبا بكر عهد إليه بمحضر من الصحابة والمسلمين فأقرؤا جميعاً عهده، وصوبوا رأيه، ولم يقل قائل منهم: لم تعهد في أمر ما جعل الله لك العهد فيه؟ ولا قال ذلك قائل في غير مجلسه، ولا بعد وفاته.

ولو كان عهد عمر خطأ في الدين، لسارعوا إلى تعريفه ذلك وموافقته عليه^(٢)، ولكان أجدر من قول قائلهم "أتولى علينا فظاً غليظاً؟"

(١) المغنى ج ٢٠ القسم الثاني ص ٢

(٢) في القاموس وافقته على كذا واستوفقته سأله الوقوف.

إذا كان ليس له أن يولى أحدًا لا فظًا، ولا رقيقًا.

وكان تنبيهه على ذلك وادكاره به، ومطالبته بتركه أولى من خوضهم فى صفة من يعهد إليه؛ لأن الكلام فى صفة من يعهد إليه فرع للكلام فى صفة العهد أولاً.

وإذا لم يصح العهد جملة سقط الخوض فى صفة المعهود إليه، وزالت المثونة^(١).

وإذا فما وجه إلى عمر من طعن أمر ليس له وزن فى ميدان الفكر ولو جاز أن نعول فى الطعن على أمثال ذلك لم يسلم أحد من الطعن^(٢).

(١) التمهيد ص ٢٠١.

(٢) المغنى ص ٢٨ ج ٢٠ القسم الثانى وهو من قول أبى على (الجبانى)

وبعد عمر يكون الكلام عن عثمان رضى الله عنهما

فضائل عثمان لا ينكرها أحد^(١) وقد اجتمعت فيه شروط الإمامة. وإجماع الأمة على الرضا بإمامته يدل على أنه كان يصلح لها لما أختص به من الفضائل^(٢). ثم إنه تولى الخلافة بإجماع الأمة، ولا يجوز أن يعدل عن ذلك إلا بأمر متيقن يقتضى العدول.

وهم لا يأخذون على عثمان إلا الجزء الأخير من حياته. وكل ما أتوا به من مطاعن يمكن الرد عليه "ولا يجوز أن نعدل عن تعظيمه وإمامته بأمر محتملة، ولا شيء مما ذكره إلا ويحتمل الوجه الصحيح"^(٣). هذا هو بعض ما طعن به الشيعة فى الخلفاء، غير على والرد عليه. ولكن الشيعة يردون على هذه الردود^(٤).

ونقطة البدء فى هذه الردود أن هناك خلافاً من أول الأمر فالشيعة يرون أن طريق الإمامة ليس من الأمة وإنما بالنص وأما غيرهم فقد اعتقد أن طريق الإمامة هو العقد والاختيار ثم بعد هذا يردون على دعوى الإجماع على إمامة أبى بكر بأننا من أين علمنا إجماع الصحابة ومن الذى يروى عن الصحابة كبارها وصغيرها وخاصها وعامها.

وإذا ادعى بأن الإمامة من تكليف الكبار فقط رد عليه بأن الطاعة واجبة على الجميع فيلزم أن يعرف كل واحد إمامته بطريقها "فإن قال المعتبر بالخواص ولا عبرة بالعوام وخلافهم، أخرجهم من التكليف بطاعة الإمام وجوز لهم التقليد فيما ليس طريقه الاجتهاد.

(١) أنظر ص ١٦٦ من هذا البحث.

(٢) ما تقدم فى الدفاع عن إمامة أبى بكر يعتبر دفاعاً عن إمامة عثمان .

(٣) نفسه ص ٤٤ .

(٤) من هذا ما تضمنه كتاب "الجواب الحاسم المبنى لشبه المغنى تأليف محمد ابن أحمد بن على بن الوليد وهو

ملحق بكتاب المغنى ج ٢٠ القسم الثانى من ص ٢٦٢ . إلى ص ٢٧٤ .

وإن قال المعتبر في هذا الباب الخاص والعام فقد اعترف بأن العقيدة والبيعة أو الرضا بالبيعة يجب أن يكون حاصلًا من جميع الأمة، لأن إمامة أبي بكر هي المبتدأ بها، وسائر أحكام الأمة تترتب عليها فيجب أن يكون العلم بصحتها حاصلًا لكل مكلف لزمه النظر في هذا الباب.

فإذا كان كذلك وجب أن يحصل لنا العلم بوقوع البيعة من جميع الصحابة، بل من جميع من اعترف بالرسول، وكان مكلفًا بالعلم بوجوب طاعة الإمام والرضا بالبيعة، دليل على أن العلم غير حاصل لكل من ادعى العلم به^(١).

وفى علمنا بأحوال نفوسنا، أنا غير عالمين بوقوع البيعة من جميع المسلمين.

ثم بعد ذلك يرد على الإدعاء بأن أبا بكر بقى خليفة بين الصحابة ويصرف الأمور، وما روى عن أحد مخالفته أو ادعاؤه أن طاعته غير واجبة، يرد على هذا بأن السكوت وترك الخلاف لا يدل على الرضا وإن قال لم يظهروا الخلاف وقد كان بعضهم ينكر على بعض المسائل رد عليه بقوله "أليس من المعلوم من حال عمر ومن بايع أبا بكر أنهم كانوا يحملون الناس على بيعته بل كانوا يغلظون له القول وينكرون على من يخالف؟"^(٢).

هذا هو بعض ما مرّد به على إمامة أبي بكر رضى الله عنه.

وقد أتيت به (دفاعًا وردًا) لأصل إلى نتيجة أريد أن أصل إليها، وهى:

إن تكفير المسلم يجب ألا يكون إلا بمخالفته لما علم من الدين بالضرورة كالشهادة وبقية أركان الإسلام.

فإذا لم يكن الأمر بهذه الدرجة فإن الواجب هو الامتناع عن تكفير مسلم فضلًا عن الصحابة رضوان الله عليهم.

وأنا لا أمانع أنه قد يكون للشيعنة وجهة نظر فى حبهى لعلى أما أن ينقلوا الكلام إلى أحقية على - كرم الله وجهه - بالخلافة ثم إلى تكفير أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فلا، فالمسألة اجتهادية.

(١) نفسه ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) نفسه ص ٢٦٧.

وما يلام عليه عمر وأبو بكر من أنهما أجبرا بعض الناس على البيعة فعلى فرض صحته نرى أن الظرف كان يحتم حسم الأمور، وأن العصبيات التي كانت موجودة بين العرب قد أخذت تطل برأسها في هذا الوقت المبكر وما قاله أبو سيفان معروف. فلو تركت المسألة للأخذ والرد لكان من الممكن أن تقع الحروب الأهلية ولو كانت قد وقعت مع ما حصل من ارتداد العرب وعزمهم الإغارة على المدينة. لو حصل هذا لكانت القضية.

إن بعض المسائل تحتمل الأخذ والرد كالمسائل الأخرى الفقهيّة مثلاً ولكن بعض المسائل الأخرى لا تحتمل هذا بحال كتلك التي تتعلق بمصائر الشعوب في أوقات الفتن.

وما حصل من الحروب بعد ذلك شاهد على هذا، وننتهي إلى أن فكرة التكفير فكرة خطيرة يجب أن يراجع كل واحد نفسه فيها. وتكفير الخلفاء بسبب الخلافة ليس تاريخياً يروى ولكنه واقع نعيشه، فما زالت المسألة تشغل الأمة حيث الشيعة والسنة لازالاً موجودين ونفس القضايا تثار خاصة من الشيعة بنفس العنف الذي كانت تثار به قديماً^(١).

(١) في الآونة الأخيرة قامت فكرة التقريب بين المذاهب ولكن العمل لازال يتعرش فيها بسبب تمسك كل من الطرفين برأيه وأنا في الحقيقة لا أعرف كيف نوفق بين رأى إنسان يرى أبا بكر الخليفة الأول وصاحب رسول الله في الغار ولو وزن إيمان الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر، كيف نوفق بين هذا وبين إنسان يرى في أبي بكر ضد هذه الصفات على ما تقدم من رأى الشيعة ولكننى أرى أنه يجب التوفيق بين أصحاب المذاهب بمعنى أن يمسك كل واحد لسانه وقلمه فلا يتناول الآخر بسوء.